الفصل السادس عشر

زيارات في صقلية

في السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر كانت صقلية ملتقى طرق الحضارات المتوسّطية. هنا كان عرب الشرق، ولومبارديو شمال إيطاليا، ويونانيّو كالابريا وبيزنطية، ونورمانديو شمال أوروبا يعيشون معاً في انسجام نسبي داخل بلد محسوب على النورمانديين. وبهذا المزيج من الديانات، واللغات، والعادات، كانت الجزيرة نموذجاً للتنوّع الموجود في منطقة البحر المتوسّط الشاسعة. كان علماؤها المنفتحون على كلّ الثقافات يترجمون علوم الشرق، ورياضياته، وفلسفته من العربية إلىٰ اللاتينيّة وينقلون المعرفة إلىٰ الشمال. كذلك، كانت أساطير الملك آرثر وحكايات الفروسية تُترجم إلىٰ اللغة العربية وتُنقل إلىٰ الشرق. ولم يتقبّل الصقليّون المعتدون بأنفسهم أن يُعاملوا كأهل مستوطنة أقلّ شأناً أو مجرّد محطّة لتجمّع القوات لخدمة مطامح الأمم الأخرى.

بالنسبة إلىٰ سكّان صقلية الأصليين، كان وصول الأسطول الإنكليزي إلىٰ مسينا من أكثر المشاهد التي يمكن تصوّرها مهابة. فمن أبعد ما يمكن للعين أن ترى عند الأفق، كان البحر يعجّ بالسفن الحربية، الممتلئة بجنود شاكي السلاح متحفّزين، تصطفق الرايات على رؤوس حرابهم، وتلمع تروسهم ودروعهم

تحت الشمس، وتعلو حناجرهم بصيحات النصر. كان رنين المعدن، وحفيف الحبال، وضربات العوارض الخشبية، وأصوات الأبواق تملأ الأجواء؛ بكثيرٍ من الفرح، وبكثيرٍ من الأمل. عند مقدّمة سفينة القائد روبير دو سابل كان ريتشارد نفسه يقف بكلّ هيبته، متألّقاً بثوبه الملكي ومتأبطاً لباس الحاج. كان ذلك عرضاً يستحقّ التسجيل. وقبل أيّ شيء، كان ريتشارد سيّد العروض. فقد كان يتبع القول المأثور: «بحسب ما تبدو عليه، يكون انطباعي عنك».

قبل ذلك بيومين فقط، كان فيليب أغسطس قد وصل بهدوء ومن دون مراسيم، مثل تاجر عادي يتسلّل لأداء مهمّة غير ذات قيمة. كان أسطوله عبارة عن سفينة واحدة، وقد دار حول الحشد الذي كان في انتظاره على الشاطىء بأمل استقبال شخصية بهذا النبل والأهمّية على أرضه. لكن المشاة من مرافقيه تحرّكوا بسرعة وأوصلوه إلىٰ قصره، بينما عاد المرحّبون ناقمين إلىٰ بيوتهم، متذمّرين يتمتمون أنّ ملكاً كهذا لا يمكن أن يكون مخلّص المسيحية. وأثار فيليب المزيد من سخط السكّان المحليّن عندما ارتكب عساكره بعد نزولهم إلىٰ الشاطىء تجاوزات متعمّدة، كما يفعل أيّ جنود في أوقات الفراغ، أحياناً. وقد غضّ فيليب الطرف عن أعمالهم.

أمّا ريتشارد، فبعدما نزل إلىٰ البر، لم يكن في نيّته أن يرتكب الخطأ ذاته. وكان من أول أعماله أن رفع مشنقة وعلّق عدداً من اللصوص والمجرمين. وقد ميّزه عرض القوّة هذا عن فيليب وجاء في صالحه وأثار كبير إعجاب السكّان المحليّين. ولذلك سُمع أحدهم يقول عنه: «إنّ الشهرة التي سبقته باهتة جدّاً إذا قورنت بحقيقة رؤيته». ولم يطل الأمر بأهل صقلية حتّى صاروا يعرفون فيليب باسم **الحمل** وريتشارد باسم **الأسد**.

في البداية تصافح الملكان ورفاقهما ودّياً، فهناك الكثير من الأعمال التي عليهما القيام بها معاً، وبعض المشاكل التي يجب القضاء عليها. لكن لقاءهما الأوّل لم يكن فاتحة خير للمستقبل. وفي اليوم التالي، وكما لو أنّه أمضى ليلة

زفاف مرهقة، اتّجه فيليب إلىٰ سفينته مستاءً وانطلق نحو الديار المقدَّسة. فكان خروجه متألّقاً أكثر من رجوعه. طيلة يومه الأوّل في البحر صادفه طقس قاس، فأصيب بدوار البحر وسرعان ما عاد إلىٰ مسينا، وفي باله أسلوب أفضل للتعاطي مع ريتشارد.

المشكلة الأكبر تمثّلت في ملك صقلية. كان تانكريد، الذي استولى على العرش قبل ذلك بسنتين، بعد وفاة الملك الشرعي وليام الصالح (الملك المسيحي الصالح الذي كان أوّل من سمع بكارثة الديار المقدَّسة وأنذر بقية البلدان). وكانت أرملة وليام جوانا بلانتاجينيه، ابنة إليانور وشقيقة ريتشارد الصغرى. عندما وضع تانكريد يده على العرش خطر له لسوء الحظ أن يسجن جوانا وهذا السجن طبعاً لم يرق لريتشارد. إضافةً إلىٰ ذلك، كانت هناك أموال في خطر. فمهر جوانا، الذي قدّمه وليام للعرش الإنكليزي كشرط للزواج، كان عبارة عن كرسيّ مذهّب هو عرشها بوصفها الملكة زوجة وليام، وطاولة من الذهب يبلغ طولها اثني عشر قدماً، وخيمة كبيرة من الحرير، ودزينتين من الكؤوس ودزينتين من الأطباق كلّها من الذهب، وأخيراً وليس آخراً استعمال مائة قادس مسلّح لمدّة سنتين. وعندما أبدى ريتشارد انزعاجه من سوء معاملة أخته، أطلق تانكريد سراح جوانا وفي حوزتها أثاثها اليومي لا أكثر.

أثارت الإهانات المتزايدة من قِبل الملك المغتصب للعرش قلق السكّان الأصليين، كما أثارتهم تدخلات ريتشارد. وبشكل عام، كان الصقليّون يرتابون بالأوروبيين الشماليين وينزعجون منهم، ولم يشذّ اجتياح ريتشارد لأراضيهم عن القاعدة. فقد تحرّك بسرعة وقبض على الحصون الاستراتيجيّة في مسّينا. وخلال مروره في المضيق، استولى على دير لابانيارا، وحصّنه، وأسكن فيه أخته جوانا ليبعدها عن الخطر. ثمّ احتلّ ديراً على جزيرة في نهر فار Far، وطرد رهبانه، وأقام فيه حاميةً وحوّله إلىٰ ترسانةٍ له. فتوجّس الصقلّيون من هذه التحرّكات، ورأوا فيها نُذُرَ عمليةٍ واسعة النطاق على جزيرتهم.

بدأ الوضع يسوء مع بدء التنابُذ والتشاتم، عندما هزىء رجال تانكريد من «الإنكليز أصحاب الأذيال الطويلة» وكأنّه نبت لهم ذيل الشيطان، ووصف الإنكليز السكّان المحلّيين ب-«الأشخاص قصيري القامة ذوي النسب العربي». حتّى ريتشارد نفسه، مع الخليط العجيب الذي لديه بين الذكورة والمثلية الجنسية، أطلق على الصقليين تسمية «مخنّثين». ولم يكن الظرف في حاجة إلىٰ أكثر من شرارة. وقد اشتعلت نتيجة شجار بين جندي إنكليزي وامرأة بائعة بشأن وزن رغيف من الخبز وسعره. إذ بسبب صراخه حول المبلغ التافه، تعرّض الجندي لهجوم المارّة، الذين داسوه بأقدامهم وتركوه يموت. بعد ذلك بقليل، سرت حوادث الشغب في الشوارع، وقُتل عدد لا بأس به من الجنود الإنكليز ورموا في المراحيض. وحاول ريتشارد نفسه تلطيف الأجواء، فخرج إلىٰ الشوارع داعياً إلىٰ التهدئة، لكن الصقلّيين لم يتوانوا عن توبيخه ساخرين، وأُغلقت أبواب مسينا على الفور.

سرعان ما تحوّل هذا العمل العدواني إلىٰ قتال شامل. أمّا ريتشارد، فكان شخصياً يرى في تلك المناوشات إعداداً للصراع في الديار المقدَّسة، واختباراً جيّداً له وطريقةً لاختبار قدرة عساكره على الاحتمال. هل هم مستعدّون للقاء صلاح الدِّين؟ كان الشاعر الغنائي برتران دو بورن قد كتب يقول: «الربّ صقلهم ووضعهم على حجر الشحذ كالسكاكين، كسكاكين سميكة عند الرأس وضعيفة عند الحدّ القاطع. وبفضل الصقل أصبحوا أهلاً لثقة أكبر من ذي قبل، وبهذا يصلون كلّهم إلىٰ الحياة الخالدة». تقدّم الملك جيشه بغضب ساطع، وبدا بحسب كلام شاهد عيان مثل «وحش نبيل».

«يا جنودي! يا قوّة مملكتي، يا من عشتم معي آلاف المخاطر، وأخضعتم طغاةً كثيرين ومدناً كثيرة، هل ترون كيف يهيننا رعاع جبناء؟ هل سنغلب الأتراك والعرب؟ هل ستفزع منّا أمم لا تُقهر؟ كيف سنعيد مملكة إسرائيل إذا أدرنا ظهورنا لهؤلاء الصقلّيين الخِساس والمخنّثين؟ كنت أتمنّى أن

توفّروا جهودكم، ربّما لكفاح أفضل ضد صلاح الدِّين فيما بعد.

«أنا سيّدكم وملككم، أحبّكم وأجلّ نبلكم وفضائلكم. لكنّي أحذّركم أيضاً وأيضاً، إن لم تنتقموا لهذه الإساءة، سيسبقكم جبنكم ويرافقكم. وسيحسبكم كلّ عدوّ رعاديد هاربين، ويضاعف قوّته ضدّكم. سيثور عليكم العجائز والأطفال. ولن آمر أيّاً منكم بالبقاء معي، خشية أن يزعزع جبن فرد ثقة رفيقه في المعركة. أمّا أنا فإمّا أن أموت هنا أَو أنتقمَ لهذا الباطل. وإن انطلقتُ حيّاً، فلن أكون إلاَّ منتصراً في عين صلاح الدِّين.

«فهل ستتخلّون عنّي، أنا ملككم، وتدعونني وحدي في مواجهة هذا النزاع؟».

عندئذٍ علت صيحات جنوده بالتأييد، وبدمدمة خافتة أبدى الملك سروره وقال: «أنتم تشدّون عزمي بتصميمكم على التخلّص من الذل». ثمّ طلب ألفي جندي من الأشدّاء، «رجالاً قلوبهم ليست في جزمهم»، وألفي رامي سهام. وأخرج مهندسوه المنجنيق الضاربة، ونُشر علم المعركة وعليه رسم التنين المثير للضحك. ثمّ تقلّد ريتشارد الملك الجليل درعه. عندما شاهد رجال البلدة اقتراب هذه القوّة من النخبة، وعلى رأسها الملك ريتشارد، فرّوا كالخراف أمام الذئب، بحسب ما نقل كشّافه. ليس بهذه السرعة، فالأمر لم يكن بهذه السهولة، لأنّه مرّت عشر ساعات قبل أن ترفرف رايات بلانتاجنيت على أسوار مسينا. على كلٍّ خُلّدَتْ سرعة تلك العملية في هذين البيتين من الشعر:

ملكنا ورجاله استولوا على مسينا

بأسرع من راهب حين يتلو صلاة الصبح

ربّما يشير البيتان أيضاً إلى السرعة التي وضع بها تانكريد أمام ريتشارد أربعين ألف أونصة من الذهب كتعويض عن الاضطرابات التي حدثت.

ومع أنّ الفرنسيين لم يشاركوا في عملية ضبط الأمن تلك، فإن زهرة

الزنبق رفرفت إلىٰ جانب الأسود الإنكليزية على جدران مسّينا، وكأن فيليب يطالب بحصته من الغنيمة. فقد أشار إلىٰ اتفاق ڤيزيلي حول تقاسم كلّ ما تجنيه الحملة الصليبية تقاسماً عادلاً. وما كان ريتشارد ليسمح بأن يمرّ ذلك من دون التعليق بكلمات اعتنى باختيارها، فقال ساخراً: «من الأجدر بأن تعلو راياته؟ من يتنحّى جانباً ويتلكّأ، عاجزاً عن المشاركة في المعركة، أم من يتقدّم ويهجم؟» كانت هذه واحدةً من المشاحنات الكثيرة، وقد لان ريتشارد، بسبب مسائل أكثر جدّية تتعيّن مناقشتها.

من هذه المسائل مثلاً ملكيّة ضحايا الحرب، والمقامرة، وحتّى سعر الخبز. في ڤيزيلي، تناول الملكان شؤون الملوك والدول، وفي شينون Chinon، وضع ريتشارد قانون سوء السلوك العسكري. لكن ماذا عن ملكية ضحايا الحرب، أَو إقدام جنوده على عمل محظور، أَو استغلال ظروف الحرب؟ بعد أيام من استسلام مسّينا، انكبّ الملكان على هذه التفاصيل. وكان للحادثة بين الجندي وبائعة الخبز انعكاس واسع النطاق بالنسبة إلىٰ السياسة. كانت التجارة في حاجة إلىٰ تنظيم وتقنين، لا سيّما بيع الخبز والنبيذ للجنود. لهذا وضع مبدأ أنّه لا يمكن للتجّار أن يستفيدوا بأكثر من عشرة بالمئة من الربح على بضاعتهم، أَو من ربع بنس بالمقياس الواحد. كما منع الجميع من شراء اللحم الميت لإعادة بيعه، وكذلك مبيع لحم أيّ حيوان حي قبل ذبحه داخل المعسكر.

أمّا قوانين المقامرة فكانت مثيرةً أكثر للاهتمام. إذ لم يكن يُسمح لأيّ جندي أَو بحّار بالمشاركة في أيّ لعبة زهر من أجل المال (لعبة النرد مثلاً والتي كانت منتشرة في القرون الوسطى). وكان عقاب هذه التجاوزات قاسياً، حيث كان الجندي يُجلَد عارياً أمام العساكر لمدّة ثلاثة أيام، ويُغطّس البحّار في مياه البحر كل صباح على مدى ثلاثة أيام أيضاً. وبالطبع، لم يطل هذا المنع الصارم الفرسان ورجال الإكليروس، ولكن لم يكن يُسمح لهم بأن يخسروا في لعبة

النرد أكثر من عشرين شلناً في يوم واحد. وإذا ضُبط كاهن أَو نبيل يخسر أكثر من هذا المبلغ فعليه أن يدفع أيضاً مئة شلن لصندوق الحرب عن كلّ يوم لا يقف فيه الحظ إلىٰ جانبه. أمّا الملوك، فكان بإمكانهم أن يقامروا متى يشاءون وقدر ما يشاءون. فألعابهم ذات الرهانات العالية لم يكن هناك حدّ للمبالغ التي يمكن المراهنة بها.

وبقيت نقطة خلاف أساسية بين ريتشارد وفيليب. كان اسمها آليس كابت، أميرة فرنسا، نسيبة فيليب، المخطوبة إلىٰ ريتشارد، والآن سجينة إليانور في روان.

II

الملكة الجديدة

لو تمّ استنفار القوة الصليبية بسرعة وفعالية أكبر، لكان الجيش المسيحي قد وصل إلىٰ الديار المقدَّسة في أواخر سنة 1190. ولكن أقبل الخريف، وحلّت العواصف مكان النسائم والطقس اللطيف. ولم يكن فيليب، الذي يصاب بدوار بحر رهيب راغباً في المضي في رحلة غير مضمونة ومحفوفة بالمخاطر. كما أنّه ما من قتال جدّي في وحول الشتاء على أيّ حال. إضافةً إلىٰ ذلك، ألغت أخبار فاجعة موت فريدريك بربروسا في تركيا وتبخّر جيشه الألماني، الحاجة إلى العجلة في تنفيذ الاجتياح المسيحي. كما عنى هلاك هذا الجيش التيوتوني أنّه لم يعد بإمكان الألمان أن ينافسوا للحصول على المجد أَو الغنائم. فقرّر الملكان تمضية فصل الشتاء في صقلية.

مع احتجاب فيليب في قصر مسينا الملكي وعدائية السكّان المحلّيين للجنود الإنكليز، انطلق ريتشارد راضياً في بناء قصر كبير له من الخشب على تلّة تشرف على المدينة. شرع في العمل بنشاط كبير وسمّى تحفته ماتي ـ

غريفون أي «اقتل اليونانيين»، في إشارة لتحذير تانكريد ومشاغبيه المحلّيين. وفي فترة عيد الميلاد قام الملكان بمبادرات تتّسم بالكياسة، فزار أحدهما مكان إقامة الآخر للاحتفالات والألعاب، بالرغم من أنّ الواقع لم يتغيّر. لقد كبت الملك فيليب غيرته من ريتشارد واستياءه منه «بدهاء الثعلب»، كما أشار أحد المعلّقين. وبعد فترة وجيزة، وقع الثعلب في شرَكه.

خلال السنة الجديدة 1191م، ارتأى ريتشارد أنّه من السياسة أن يعقد الصلح مع المتبجّح المحلّي. وهكذا في الخامس من شباط/ فبراير، التقى هو وتانكريد في كاتانيا للتباحث وللصلاة أمام ضريح القديسة الشهيدة أغاثا. ولم يكن بالإمكان أن يجدا في غير القديسة أغاثا صورة أفضل للضحية الكاملة لهمجية الرجل تجاه النساء. فتبعاً لكتاب القديسين الكاثوليكي، تعرّضت تلك القديسة في القرن الثالث الميلادي للاغتصاب من قِبل قاض شرير أراد أن يسرق ثروتها، ثمّ للتعذيب إذ مزّقت الخطّافات جسدها وقطع نهداها: «أيها الرجل القاسي، هل نسيتَ أمّكَ والصدر الذي منه تغذّيت؟» هكذا قيل إنّها صرخت قبل أن تُدحرج عاريةً فوق الجمر الملتهب.

يبدو أنّ الحج إلىٰ مقام القديسة أغاثا أسبغ على الملكين نفحةً من الرقّة ولين العريكة. فجأة غمرت الخصمين السابقين محبّة أخوية، فصلّيا واحتفلا معاً وتبادلا الهدايا الرائعة. قدّم تانكريد للملك الإنكليزي أغراضاً ثمينةً من الذهب والفضّة، وخيولاً حربية وحريراً نادراً، والأهمّ من كلّ ذلك أربع سفن شحن كبيرة وخمسة عشر قادساً حربياً. بالمقابل، وضع ريتشارد أمام تانكريد أجمل سيف عريض الحد تمّ صنعه، والذي قال عنه إنّه المهنَّد الخارق نفسه، السيف السحري الذي كان للملك الأسطوري والجبّار آرثر.

في هذه الأجواء من الصداقة والانسجام أسرّ تانكريد بتحذير لريتشارد من الملك فيليب، لأنّ الثعلب كان رابضاً أمام وكره يتحيّن الفرصة للوثب. وعرض تانكريد رسالةً من الملك فيليب يصف فيها ريتشارد بالخائن ويعد نفسه

بالتحالف مع تانكريد، في حال انقضّ هذا الأخير على الإنكليزي.

عندها صرخ ريتشارد قائلاً: «لستُ بخائن، لم أكن يوماً خائناً ولن أكونه أبداً! يصعب عليّ أن أصدّق أنّ ملك فرنسا أرسل لكَ بهذا الكلام عنّي».

فأقسم تانكريد على صحّة الرسالة ووعد بإحضار الشهود. وطبعاً، عندما عُرضت الرسالة أمام فيليب قال إنّها ملفّقة. لكن ريتشارد وجد فيها العذر ليفعل ما تاق دائماً إلىٰ فعله، وقرّر وضع حدّ لمهزلة خطوبته على آليس كابيه. ولتحقيق هذه الرغبة قديمة العهد، استدعى كونت فلاندريا، الذي وصل حديثاً إلىٰ صقلية ومعه مجموعة لا بأس بها من الجنود الصليبيين. كان الكونت الفلمنكي معروفاً بلباقته وفصاحته، إذ كان لديه «لسان سعره بأغلى الأثمان». فوضع ريتشارد أمر التفاوض بين يديه.

وكان ردّ فيليب عنيفاً: «إذا تخلّى عنها وتزوّج امرأةً غيرها، سأكون عدوّاً له طالما أنا على قيد الحياة». عند سماع ريتشارد لهذا التهديد، أجاب بكلّ هدوء أنّه سيحضر عدّة شهود ليثبت كيف أنّ والده دنّس الأمير الكابيتية والتي أنجبت منه ولداً. لم يكن يليق بها أن تصبح ملكة إنكلتره. أمام قدري الملكين المتشابكين الآن عسكرياً، لم يسع فيليب إلاّ أن يطلق أنيناً خاضعاً ويمدّ يده لقبول عشرة آلاف ليرة من الفضّة كتعويض عن هذا الإخلال بالوعد الذي لا يُغتفر. وإضافةً إلىٰ كلّ الإهانات، وكل أشكال الاستياء لديه، كان على الملك الفرنسي أن يتحمّل هذا المقلب أيضاً.

في حين أزاح هذا التصرّف عبئاً عن كتفي ريتشارد، فقد ترك المجال مفتوحاً للسؤال الكبير حول مصير العرش الإنكليزي. إن لم يتزوّج ريتشارد وينجب وريثاً، فقد يؤول التاج إلىٰ أخيه الأصغر المتباكي جون، وهذا كابوس تنكمش منه ذعراً كلّ إنكلترا وكلّ أوروبا.

بعيداً في فرنسا كانت أليانور أوف أكيتان التي لا تُقهر تهتمّ بمسألة الخلافة الشائكة هذه. الآن مع استرسالها في حرّيتها الجديدة، خبّأت آليس في برج في

روان وبدأت تطوف على منازل أوروبا الملكية بحثاً عن بديلة مناسبة. التفتت بنظرها إلى أسبانيا، التي كان ريتشارد قصدها ليصارع في بامبلونا قبل سنوات بصفته كونت بواتو. وراء البرينيه، وهناك أبدى بعض اهتمام بابنة ملك ناڤار Navarre، فتاة لائقة وحالمة اسمها بيرنغاريا Perengaria. لا شكّ في أن إليانور كانت تعي قلّة اهتمام ريتشارد بالجنس اللطيف، لكنّها تغافلت عن هذه الناحية. فعندما تكون أمور أكثر أهميّة في خطر، يمكن التغاضي عن انحراف جنسي لدى الرجل كواحد من العيوب الكثيرة لدى هذا الجنس من البشر.

إذاً ريتشارد سيترفّع عن انحرافه إكراماً للسلالة الملكية. فالواجب ينادي. في النهاية، ألم يعاشر نساءً من وقت لآخر؟ أي أنّ هويته الجنسية كانت... مزدوجة. وبالنسبة إلىٰ شاعر بلاطه الغنائي، برتران دو بورن، كان معروفاً بلقب اللورد **نعم ولا**. والآن، أصبح عليه أن يكون **بلى**. ألم يكن صحيحاً أنّه أنجب صبياً من فتاة من كونياك؟ (ريتشارد سمى لقيطه فيليب في بادرة يمكن تفسيرها بطريقتين). وكانت إليانور ترى أنّه على ابنها المفضّل ببساطة أن يضغط على نفسه ويفعل الشيء ذاته من أجل مجد سلالة بلاتاجنيت واستمرارها.

بينما انطلق ريتشارد بجيشه إلىٰ مرسيليا، توجّهت إليانور بهدوء إلىٰ إسبانيا واستلمت بيرنغاريا الوادعة. وقد طوّع مؤرّخو البلاط لغتهم لتقديم هذه الآنسة المطيعة في أفضل صورة. كانت «مثقّفة أكثر منها جميلة». (فهل هذا يعني أنّها كانت عادية؟) كانت «فتاة يقظة، وسيدة لطيفة، فاضلة وعادلة، لا تعرف الزيف ولا النفاق». (فهل هذا يعني أنّها كانت باهتة؟) بالنسبة إلىٰ إليانور كانت فضيلتها الكبرى إذعانها، إذ كانت تلك الفتاة تقف خائفةً وراء إليانور الجبّارة.

بينما كانت الترتيبات تتم، ذهب فصل الخريف ودخل الشتاء وأصبحت الرحلة عبر جبال الألب خطرة. لكن ليس على إليانور، التي شقّت طريقها،

والنعجة إلىٰ جانبها، بين الثلوج باتجاه أسدِها، وقوّت من أُسطورتها في حياتها.

لقد كتب أحد معاصريها يقول: «الملكة إليانور، امرأة لا يمكن مقارنتها... جميلة وعفيفة، قوية ومتواضعة، حليمة وبليغة، وهذا قلّما نلتقيه لدى امرأة؛ وهي لا تعرف التعب في كلّ مهمّة تضطلع بها، وقوّتها موضع تقدير بالنسبة إلىٰ سنّها». وكان ريتشارد كأنّه يشعر بمجيء أمّه المسيطرة والمتملّكة إليه، وطبعاً حزر أنّها في منتصف طريقها عبر القارة وفوق أعلى سلاسلها الجبلية لترغمه على الاقتران بامرأةٍ أخرى.

قبل وصول إليانور برفقة بيرنغاريا ببضعة أسابيع، جمع ريتشارد رؤساء أساقفته وأساقفته حوله في كنيسة ريجينالد دو موياك Reginald de Moyac في مسّينا. وهناك صرّح عن خوف عميق لديه من مثل دمار سدوم[1]، وتجرّد من ثيابه واعترف بفحش مثليته الجنسية. لقد رمى بنفسه تحت رحمة ربّه، والتمس السماح والقوة ليقاوم دوافعه غير الطبيعية ويكفّ عن سلوك الطرقات المحرّمة. فوعد بالامتناع والتوبة. وفي محاولاته لكبح ميوله الشاذة، كان مأخوذاً بقصّة حمار بلعام الواردة في الكتاب المقدّس. في تلك الحكاية، ارتدّت الدابّة عندما وقف ملاك من عند الله في الطريق رافعاً سيفه، فضربها بلعام ثلاث مرّات. عندها سأله الملاك: «لِمَ ضربتَ حمارك ثلاث مرّات؟ أنا وقفتُ في طريقك، لأنّي أرى أنّها طريق الضلال».

رأى أساقفته أنّ توبته صادقة، ووضعوا قواعد العمل التكفيري، وأعلنوا أنّ «أشواك الفسق» زالت من رأسه. وكتب مؤرّخه روجر أوف هوفدن يقول: «سعيد هو الإنسان الذي يهبط إلىٰ هذا المستوى الدنيء ثمّ يرتفع بقوّة أكبر. سعيد هو الإنسان الذي بعد التوبة، لا ينحدر إلىٰ طريق الهلاك!».

---

(1) سدوم وعمورة، البلدتان اللتان دُمّرتا حسب العهد القديم بالغضب الإلهي على قوم لوط؛ لشذوذهم الجنسي، ومعاصيهم الأخرى (المترجم).

قد يكون ريتشارد رأى في تصريحه عن شذوذه تحصيناً ضد أي مشروع زواج تنوي أمّه إلزامه به. وبمزيج من الفرح والخوف قادها وآنستها اللطيفة إلىٰ مسكنهما في ماتي غريفون.

بالنسبة إلىٰ الجنود الإنكليز والفرنسيين الذين شاهدوا الدخول المهيب لإليانور وموكبها، بدت والدة الملك وجهاً في قمّة غموضه. كانت قوية، وجميلة، لا تعرف التعب، حسّاسة، وأديبة، كانت نسراً يحلّق فوق البشر العاديين، والدة لعشرة أبناء ملكيين. ومع ذلك، لم تنجح في كلّ زيجاتها الملكية في أن تنجب وريثاً ذكراً لملك فرنسا وهذا سبب طردها. كما كانت الشائعات منتشرةً حول خيانات ربّما قامت بها من وراء ظهر ملكها، من شقيق الملك نفسه إلىٰ صلاح الدِّين (وهذا أسوأ ما يمكن أن يقال)! كما أنجبت خمسة أولاد لملك إنكلترا، الذي قدّر لها ذلك لدرجة أنّه سجنها ستّة عشر عاماً. كان بعض الناس يرون فيها الأم الشيطان التي اتّخذت مرّة، في الحمام، شكل التنين. وحتّى ريتشارد نفسه، ربّما في خضم يأسه من «قذارة» حياته المنحرفة، قال عن أسلافه إنّهم «أتوا كلّهم من الشيطان وإلىٰ الشيطان يعودون. ومع جذور عفنة كلّياً كهذه، كيف يمكن أن تنبثق ذرّية مثمرة وصالحة؟».

لكن لا شيء من تلك الشؤون، سواء السامية منها أَو دركات العار المشينة، كان يعني الجيش الصليبي أكثر من دور إليانور في كارثة سنة 1147م. إنّ رؤية هذه الملكة، التي تقدّم بها العمر ولكن حفظ لها جمالها، تنزل بأبّهة من سفينتها برفقة حرسها العسكري أعادت إلىٰ الأذهان صورة كابوس مضت عليه أربع وأربعون سنة، حين كانت إليانور تمتطي جواداً وتعدّ العدّة للمشاركة في الحرب مع غيرها من الجنديات الصليبيات، تتبعها بطانة كبيرة من الوصيفات والشعراء الغنائيين وقافلة طويلة من الحمولة الزائدة. رؤيتها الآن تذكّر بالكارثة عند تلّة قدموس، عندما تباطأت قافلة أغراض الملكة فشقّت الجيش الصليبي، وأدّت إلىٰ هزيمة مروعة على يد الأتراك. معها عادت صورة

حملة صليبية يسيطر عليها العنصر النسائي وحيث كان يتحوّل الحج المقدّس في النهار إلىٰ مهرجان كبير في الليل للشعر والموسيقى والرقص والتباري بكلام عن الحب. كانت إليانور رمزاً للانغماس الذاتي والهزيمة، وبسببها لم يكن يحبّذ وجود النساء في تلك الحملة.

يومها كتب راهب ونشستر، ريتشارد أوف دڤايزز Devizes، آسفاً: «عرف الكثيرون ما أتمنّى لو لم يعرفه أيّ منّا. الملكة نفسها ذهبت في زمن زوجها السابق إلىٰ القدس. فلا تدعوا أحداً يتكلّم. أنا أيضاً أعرف جيّداً. أوصيكم بالصمت».

لم تمكث إليانور في صقلية سوى أيام قليلة، استُقبلت خلالها عزيزتها بيرنغاريا كما يجب في دارة ريتشارد ووُضعت في عهدة شقيقته جوانا، لكن أجراس الزواج لم تكن تدقّ في بال أحد على ما يبدو، ولا في بال ريتشارد طبعاً. وجاءت فترة الصوم لتقدّم حجّة مفيدة للتأجيل. فأوكل ريتشارد إلىٰ أمّه مهمّة معالجة بعض المشاكل الداخلية، وأرسلها على متن سفينتها عائدةً إلىٰ روما.

ثمّ حوّل انتباهه من جديد إلىٰ الحملة الصليبية.

في غمرة توقه إلىٰ إعداد نفسه روحانياً، استدعى ريتشارد ناسك كالابريا الكبير، يواكيم أوف فيوري، إلىٰ جانبه للتعلّم منه ومعرفة تنبؤاته. ماذا ينتظر الحرب الكبيرة بين المسيحيين والكفّار؟ هل لرؤيا القديس يوحنّا تأثير على مشروعهم؟ قيل إنّ هذا الراهب البندكتي المثير للجدل كان يملك موهبة التنبّؤ وكان عارفاً جدّاً في تفسيره لرؤى القديس يوحنّا في سفر الرؤيا.

بينما كان ريتشارد وأساقفته ورؤساء أساقفته يستمعون إليه لساعات، رسم الراهب المتنسّك صورة مأخوذة عن الرؤيا 12: 1، هي صورة السيدة العذراء يلفّها ضوء شمس العدالة، وتسند الكنيسة المباركة قدميها الثابتتين، وعلى رأسها تاج تزيّنه اثنتا عشرة نجمة تعني الرسل الاثني عشر. وتجاهها تنين بسبعة

رؤوس، هو الشيطان بنفسه. والسبعة هو العدد المتناهي، كما قال الراهب، لكن قدرته على الشر غير متناهية، لأنّ رؤوس الشيطان تمثّل الشر الذي بإمكانه فعله. كذلك، تمثّل الرؤوس المضطهدين السبعة الرئيسيين للإيمان المقدّس، وبينهم هيرود ومحمّد. وقال يواكيم إنّ خمسة من السبعة كانوا من الأموات، بينما يبقى اثنان على قيد الحياة. الأخير كان المسيح الدجّال الذي كان الآن في الخامسة عشرة من عمره بحسب ما قال الناسك. ويعيش في روما.

«في هذه الحالة، البابا الحالي كليمان هو المسيح الدجّال»، قال ريتشارد مبتهجاً. عند هذا الاقتراح، أبدى أساقفة ريتشارد اعتراضهم. على كلّ حال، كان عمر كليمانت الثالث أكثر من خمس عشرة سنة. وشدّد يواكيم على الأمر قائلاً: بعد فترة وجيزة سيصبح النبي الكذّاب بابا ويحاول أن يغري المؤمنين، إلى أن يُكشف أمره، «ويقضي عليه يسوع المسيح بنفخةٍ من فمه». عند هذه التصوّرات الثقيلة لا شكّ في أنّ ريتشارد حكّ رأسه مفكّراً.

مضطهد الكنيسة السادس الرئيسي كان، برأي الناسك، صلاح الدِّين نفسه. صلاح الدِّين يُعتبر الآن المضطهد الأفظع لكنيسة الله، ومن الضروري أن يُهزم. فقد دنّس مدينة القدس المباركة وضريح ربّنا والأرض التي مشى عليها مخلّصنا. لهذا يجب أن يرفع يده عن هذه الممتلكات المسيحية، لمن سينعم إلى الأبد بمجد الإيمان.

فسأل ريتشارد: «متى سيحدث ذلك؟».

«بعد مضي سبع سنوات منذ يوم احتلال القدس».

قام ريتشارد بعملية حسابية سريعة. إذ كان صلاح الدِّين استولى على القدس قبل خمس سنوات. فسأل الملك نفسه «هل بكّرنا في المجيء؟».

«وصولكم ضروري جدّاً، أجاب الناسك، رافعاً يده ليسكّن القلق، «لأنّ الربّ سيمنحكم النصر على أعدائه ويمجّد اسمكم ويرفعه فوق كلّ أمراء الأرض».